الرؤية الشمولية فى تأريخ الأدب
عند شوقى ضيف

د. حلمى بدير

«شوقى ضيف» من القلائل فى عمر أدبنا العربى، الذين يعرفون جيدًا ما يريدون تقديمه للمكتبة العربية، منذ بداية خوض هذا المجال سنة ١٩٣٩ فى رسالته التى تقدم بها إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة وعنوانها، «النقد الأدبى فى كتاب الأغانى» لنيل درجة الماجستير فى الآداب، ورسالته «الصناعة الفنية وتطورها فى الشعر العربى» سنة ١٩٤٢، لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب.

ووضوح «الرؤية» يبدو محددًا لمنهجه العلمى، منذ هذه البداية الأكاديمية الأولى، كواحد من جيل رائد أول تتلمذ على عميد الأدب العربى مباشرة فى شبابه، (كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى أوج قمته الأدبية، والإبداعية خلال الثلاثينات والأربعينات من هـذا القرن).

وهو المنهج الذى يعتمد على محورين أساسيين:

* محور تاريخى علمى متتبع، يدقق فى مسار تاريخ الأدب العربى، ويلقى الأضـواء على جوانب حركته المتطورة المتتابعة.

* محور نقدى أكاديمى يمتزج بالمحور السابق، ليقدم ملامح واضحة لحركة تاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة بدءًا من «الجاهلية» حتى «المعاصرة».

وهو «المنهج العلمى» المؤكد على ضرورة خوض جوانب المعرفة الأدبية المختلفة..

فيقدم فى تاريخ الأدب العربى:

العصر الجاهلى، ١٩٦٠.
والعصر الإسلامى، ١٩٦٣.

والعصر العباسى الأول، ١٩٦٦.
والعصر العباسى الثانى، ١٩٧٣.
وعصر الدول والإمارات جـ١، ١٩٨٠.
وعصر الدول والإمارات جـ٢، ١٩٨٤.

وفى مجال الدراسات الأدبية:
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، ١٩٤٣.
والفن ومذاهبه فى النثر العربى، ١٩٤٦.
والتطور والتجديد فى الشعر الأموى
والشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية.

ثم ينتقل إلى العصر الحديث:
دراسات فى الشعر العربى المعاصر، ١٩٥٣.
والأدب العربى المعاصر فى مصر، ١٩٥٧.

ثم يقدم دراسة بين الأدبين الرسمى والشعبى:
الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.
والبطولة فى الشعر العربى.

ثم يترجم لعدد من الشخصيات الأدبية:
شوقى شاعر العصر الحد.
ابن زيدون.
البارودى رائد الشعر الحديث، ١٩٦٤.
العقاد.

ثم يقدم تجارب فى النقد الأدبى التعريف ببعض فنون الأدب العربى فى دراساته:

فى النقد الأدبى ١٩٦٢، وفصول فى الشعر ونقده، ١٩٧١، والنقد ١٩٥٤، والرثاء والمقامة ١٩٥٤، والترجمة الشخصية ١٩٥٦، والرحلات ١٩٥٦، وينتقل إلى الدراسات البلاغية والنحوية:

البلاغة تطور وتاريخ ١٩٦٥ المدارس النحوية.

ثم إلى الدراسات القرآنية:
سورة الرحمٰن وسور قصار: عرض ودراسة.

ثم إلى تحقيق التراث:
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جزءان.
كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد[1].

وهذا التنوع الكبير فى مجالات الدراسة فى الشعر والنثر القديم والحديث، وفى النحو والبلاغة والنقد والتراجم، وفنون الأدب، والتفسير والقراءات.. يجعل دراسة «البحث الأدبى: طبيعته. مناهجه. أصوله. مصادره» مرجعًا رئيسيًّا يجمع بين النظرية والتطبيق..

وتبدو فى أعماله جميعًا امتزاج المحور التأريخى بالمحور النقدى.. على الرغم من ظاهرة التاريخية الواضحة، والتى تبدو خاصة فى بعض عناوينه الرئيسية، مثل «تاريخ الأدب العربى»، أو «البلاغة تطور وتاريخ».

على أن الوقوف عند جانب واحد فحسب عنده، وهو الجانب الغالب على طبيعته الأكاديمية، وهو محاولته الموسوعية فى تاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة، يجعلنا نحاول كذلك اكتشاف: مدلول «التاريخية» عنده فى تاريخ الأدب History of literature.. وموقعه بين محاولات تاريخ الأدب العربى فيما سبق تحت أسماء: «تاريخ آداب اللغة العربية» أو نحوها فى العصر الحديث بدءا من جورجى زيدان.

أما عن مدلول «التاريخية» Historianism فهو لا ينغلق على حدود التتابع الوصفى للأحداث فى تعاقبها المتسلسل، وإنما ينطلق إلى آفاق التفسير المستفيد من حركة تاريخ الأدب، من حيث علاقتها بالبيئة المفرزة، والأديب المبدع.. ولهذا نجده يستعين بحركة العصر، يتوقف عند ملامحها المحددة لأدوار فكرها.. وهى ملامح قد تبدأ من المكان.. وتمتد فى الزمان تكشف عن هوية كل منها.. وتتعرف على الملامح المميزة التى يختص بها عصر دون آخر، ومن ثم يتميز بها فكره وأدبه.. وهو ما سنحاول العرض له بعد.

أما عن موضع «شوقى ضيف» بين محاولات «تاريخ الأدب العربى» قديمًا وحديثًا.. فيجب أن يكون واضحًا فى الأذهان أنه جهد يختص بالعصر الحديث فحسب.. وأن المحاولات القديمة تقدم نماذج تختلف على نمط «المقتطفات»، «والبقات»، «والمجاميع»، ونحو ذلك، ومع ذلك فإن جهد العصر الحديث يتفاوت منظورًا و «علمية» فيبدو فيه شوقى ضيف متميزًا بينه جميعًا.. فقد توفر بعض على تاريخ الأدب العربى بدءا من القرن العشرين.. نذكر منهم:

---

(١) حاولنا رصد تاريخ الطبعة الأولى من دراساته وأبحاثه وهى قد صدرت - فى غالبيتها - عن مؤسسة دار المعارف.

تاريخ آداب اللغة العربية: حسين توفيق العدل ١٩٠٤ نسخة بالبالوطة بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٧٥.

تاريخ آداب اللغة العربية: محمد دياب ١٣١٧هـ مطبعة جريدة الإسلام.
تاريخ آداب اللغة العربية: جورجى زيدان ١٩١١.
تاريخ آداب اللغة العربية: مصطفى صادق الرافعى ١٩١١، ٣أجزاء. مطبعة الأخبار.
تاريخ الأدب العربى: أحمد حسن الزيات.
تاريخ الآداب العربية: كارلو نيللينو.
الأدب العربى وتاريخه: محمود مصطفى ١٩٣٧، ٣ أجزاء.

وفيما عدا ذلك فقد جنح الاتجاه فى التأريخ نحو «الجزئيات» التى تقف عند بعض الظواهر: «التشاؤم فى الشعر العربى قبل أبى العلاء»[١] أو «المرثية فى الشعر العربى»[٢]، أو «تطور الخمريات»، أو «شعر الطبيعة»، أو «الوصف»، أو «نزعة الزهد» أو غير ذلك، أو تقف عند مرحلة تاريخية كبحث الدكتور محمد كامل حسين، «الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين»، وهو بحثه للماجستير سنة ١٩٣٥ - أو بحث «الأدب العربى فى القرن الثالث الهجرى» لراجية فهمى ١٩٤٢، أو «الأدب البويهى» لمحمد غناوى الزهيرى ١٩٤٨، أو «الشعر العربى فى المهجر» للدكتور يوسف خليف ١٩٥٦[٣]، ويقف الاتجاه التاريخى أحيانا عند الشخصيات.. وقد بدأ هذا بطه حسين فى رسالته للجامعة الأهلية (١٩٠٨ - ١٩٢٥) لدرجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ بعنوان «تاريخ أبى العلاء المعرى». وتبعه أحمد بيلى برسالة حول «حياة صلاح الدين الأيوبى» سنة ١٩٢٠، ثم محمد كمال حلمى برسالة حول «أبى الطيب المتنبى» سنة ١٩٢٠، ثم «عمرو بن العاص» لحسن إبراهيم حسن سنة ١٩٢١، ولازالت هذه الاتجاهات جميعًا تسود تاريخ الأدب العربى فى الرسائل والأبحاث الأكاديمية المختلفة، وقد غطت ولا شك مساحات هائلة من المراحل التاريخية، والظواهر الأدبية والشخصيات الأعلام المختلفة، ولكنها تفتقر - نتيجة لتنوع الباحثين - إلى تكاملية المنهج وشمولية الرؤية.

تكاملية المنهج الأكاديمى:

لابد من الاعتراف بأن منهج البحث الأكاديمى يبدو مختلفًا حتى الآن ومتنوعًا، بل وغير واضح المعالم أحيانًا لا فى أذهان الطلاب فحسب، ولكن فى أذهان بعض المتخصصين.. ولكن مع

(١) هو بحث الماجستير للدكتورة عائشة عبد الرحمن سنة ١٩٤١.
(٢) بحث الماجستير للدكتور محمد حسن الزيات ١٩٤٢.
(٣) اعتمدنا على ثبت رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة منذ النشأة حتى سنة ١٩٥٧.

دراسات الدكتور شوقى ضيف نكتشف وضوحًا متكاملاً فى رؤيـة المنهج الأكـاديمى العلمى، نكتشف معه أن البحث يعد:

- وقد تحددت أهدافه والغرض منه وما يريد أن يحققه.

- وقد توفرت المادة العلمية فى مصادرها ومظانها جميعا متقصية إلى أدق الحدود والأبعاد.

- وقد توفرت بعد العنصرين الأولين «عناصر الجدة» وهى العنصر الرئيسى من البحث.

وهنا نطرح التساؤل المؤرق حول وظيفة تاريخ الأدب، وقد كان محور أحـد أعداد مجلة «الثقافة الأجنبية» العراقية.. الذى جعل «طرق ونظريات كتابة تاريخ الأدب» محور العدد الأول من السنة الثالثة شتاء ١٩٨٣، وكان أول موضوعات هذا «المحور» بعنـوان «وظيفة تاريخ الأدب» لروبرت سبللر Robert E. Spiller ترجمة: د. سلمان الواسطى عن الإنكليزية، تحت شعار من أقوال سبللر يقول: «وظيفة تاريخ الأدب هى أن يكشف تاريخ الإنسان كما يكشف عنه الأدب».

إن وضوح وظيفة تاريخ الأدب، هى المحور الأول الذى منه تتوضح أبعاد المنهج الأكاديمى المستخدم.. وقد نجح «سبللر» فى تلخيص أهم النظريات المكونة له.. من التاريخ، والنقد، والظروف المؤثرة.. والمتأثرة.. مع اعترافه بضرورة اقتران هذه العوامل جميعًا.

ففى الماهية يقول «يعنى تاريخ الأدب بأحـد أشكال التعبـير الإنسانى، فيصف ويفسـر «التعبير» الذى يتخذ «الأدب» وسطا له، الذى يبدعه شعب من الشعوب خلال فترة زمنية محددة، وفى مكان معين وبلغة هى - عادة - لغة ذلك الشعب»[١].

ونجد التعريف وقد احتوى على كلمات «الوصف» و «التفسير» و «التعبير» و «الأدب» و «الإبداع» و « الزمن» و «المكان» و «اللغة».. وهذه المفردات تشكل تداعيًا فكريًا يمكن أن يحدد من خلاله عوامل الالتزام فى عملية تاريخ الأدب». ثم يبدأ بعدها فى فصل هذا المجال عن مجالات أخرى..

«إن تاريخ الأدب ليس تاريخًا للغة» رغم ضرورة استعانته بعالم اللغة.

«وهو ليس تحقيقًا للنصوص» لأنه يعتمد عليها.

---

(١) مجلة الثقافة الأجنبية Foreign Culture مجلة فصلية - وزارة الثقافة والإعلام - دار الجاحظ - بغداد. العدد الأول. السنة الثالثة. شتاء ١٩٨٣. ص ٤٠.

«وليس تاريخ الأدب نقدًا أدبيا»[1] مع أنه ينبغى أن يعتمد على النقد الأدبى.

ويلخص الموقف على هذا النحو:

«قد يكون مؤرخ الأدب ملمًّا.. بل يتحتم عليه أن يكون ملمًّا، بدرجة أو أخرى بميادين عمل اللسانى، وناقد النصوص، والناقد الأدبى، لكن دوره كمؤرخ أدبى يختلف تمامًا عن أدوار أولئك، إذ أن وظيفته الدقيقة المحددة هى أن يجيب عن أسئلة مثل: كيف؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ ظهر أو يظهر عمل أدبى إلى الوجود، وما هى علاقاته الحالية أو الماضية بالأعمال الأدبية الأخرى، وبالتاريخ العام للإنسان باعتباره كائنا اجتماعيًّا حساسًا»[2].

ومن هنا يصبح دور مؤرخ الأدب محدد الأبعاد فى «علمية» منهجه، وتصبح مهمته أكثر شمولية، وأكثر امتدادًا من فروع «التعبير» الأخرى المختلفة، فهو ليؤرخ لفترة ما.. عليه أولاً أن يحدد: **الإطار الزمنى** الذى ينطلق منه والذى ينتهى عنده.. ويقدم مبرره المستند عليه فى اختياره للحدين فى البدء والانتهاء، وهو قد يكون مبررًا تاريخيًّا سياسيًّا - كما هو الشائع فى تحديد الأطر الزمنية لتاريخ الأدب العربى فى مراحله المختلفة - أو نقديًّا فنيًّا يعتمد على أحداث التاريخ الأدبى كفواصل زمنية دون غيرها.. ولكنه لابد وأن يكون مقنعًا، وهو لن يكون كذلك إلا إذا، توافرت له عناصر المنطقية العلمية.

ثم ينتقل إلى تحديد: **الإطار المكانى** ومنه تتبين توجهاته وظواهر الحركات التى يرصدها.. والإطار المكانى سوف تتحدد به أيضًا عناصر عدة منها ما هو تاريخى من حيث تاريخ المكان وحركته، صعودًا أو هبوطًا أو ما اختاره توينبى Toynbé، عنوانه الدال الذى لا تسهل ترجمته Cities on the move، وجعله عنوانًا لأحد أهم دراساته فى حركة المدن العالمية الكبرى دلهى والقاهرة وغيرهما.. يتتبعها كحيز مكانى يتمتع بالحيوية والحركة يتمدد وينكمش، ليتغير بتغير العصور والأجيال والحقب التاريخية.

ومن هذا ينتقل إلى: **الظواهر الأدبية**: وهى معتمدة على تفهم واع بحركة المجتمع بأبعادها المختلفة اجتماعية، وسياسية، وتاريخية، وفكرية، وثقافية، راصدًا دقائق هذه الحركة، واعيًا بقيمة تأثيرها مجتمعة فى حركة الإبداع البشرى، وانعكاسها عليه. واشتراكها فى صنع «الظاهرة الأدبية» أو الاتجاه المذهبى أو حركات التقدم أو الارتداد.. أو غير ذلك مما يتعرض له «العصر الأدبى» فى كل الأمم والشعوب المختلفة.

ثم يضمن ذلك حركة «**الشخصية الأدبية**» فى الشعر أو النثر، وفنونه المختلفة معتمدًا على

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٠.

«الثابت» دون «المتغير»، وهو لا يرصد «المتغير» حتى يصبح «ثابتًا» وربما تبدو هذه إشكالية «المعاصرة» فى ميدان تاريخ الأدب.. ولا يتناقض هذا مع فكرة «سبللر» من «أن اهتمام مؤرخ الأدب، ينبغى أن ينصب على العملية الإبداعية برمتها، وليس فقط على الشكل والمضمون السكونيين للعمل المنجز»[1].

على أن الأمر من خلال هذه العناصر المتكاملة فى تعقب حركة الأدب لا يخلو من «ذوق خاص» وهو قدر من «الذاتيـة» مفروض حيث أن «المؤرخ الأدبى» لا يمكنـه التجرد عن عوامل مكونات ذاته.. وإلى حد ما فإننا نضع فى الاعتبار هذه الخصوصية الذاتية فى تعقبه لحركة الأدب وإلحاحه على بعض جوانبها وأفكارها، ومحاولاته إخفاء بعض جوانب لا تلقى لديه تقبلاً من نوع ما.

رؤية مقارنة:

تنوعت طرائق تاريخ الأدب مع ذلك تنوعًا كبيرًا.. فى وسائل البحث، أو فى أهدافه فى الأدب العربى، أو فى الآداب العالمية.. وهذه محاولة للكشف عن عناصر التنوع، والاختلاف فى تأريخ الأدب الفرنسى والإنجليزى، والبرازيلى، والعربى،لنصل منها إلى منهج شوقى ضيف وإضافاته فى هذا المجال.. وسوف تعمد الدراسة إلى:

- A short History of English literature, by Emile Le Gouis.

فى مجال الأدب الانجليزى.

- A short History of French literature, by Geoffrey Brereton.
- Tableaux de la litterature Française au XIXe Sicle et au XXe Siècle pour Fortunat Strowski.

فى مجال الأدب الفرنسى:

- A literatura Brasileira atraves dos textos- De Masoud Moisés.

فى الأدب البرازيلى.

لمحاولة تبين مناهج دراسة تأريخ الأدب فى بعض الآداب العالمية المختلفة.. ومنها تبين أوجه الخلاف أو الاتفاق بين مناهج تأريخ الأدب العربى، ومنهج تأريخ الأدب الغربى ومنهج الدكتور شوقى ضيف.

---

(١) المصدر السابق: ص٤٣.

فموجز تاريخ الأدب الإنجليزى «لاميل لجوا» يؤرخ بدءًا مما قبل عصر «تشوسر Chaucer» بفصلين صغيرين.. يتحدث فى أولها عن الأدب الأنجلوسكسونى، وفى ثانيهما من الغزو النورماندى حتى «تشوسر». ثم يبدأ القرن الرابع عشر» ثم «تشوسر ١٣٤٠؟ - ١٤٠٠» ثم القرن الخامس عشر، ومنه إلى عصر النهضة الذى يتوقف معه بنهاية القرن السابع عشر، وينتقل بعدها إلى القرن الثامن عشر والرومانسية والعصر الفكتورى.. وما بعد ذلك حتى الآن.

ويلاحظ أن التقسيم ينبع من طبيعة حركة الأدب ذاته.. أى باعتباره متغيرًا متأثرًا بحركة المجتمع والتاريخ.. فمنذ بدئه فى القرن الثالث عشر وحتى الآن لانكاد نعثر على حقبة أو عصر منه يقترن فى التسمية بالعصر التاريخى السياسى المصاحب، اللهم إلا العصر الفكتورى Victorian Era الذى يقع فى النصف قرن الممتد خلال القرن التاسع عشر بين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٨٠، وفيما عدا هذا فإن الانتقال التأريخى يخضع لعوامل المتغير الفنى، والمضمونى، والجمالى، فى الأدب فى المقام الأول.

وهو ما نلاحظه بصورة أكثر تركيزًا فى «موجز تاريخ الأدب الفرنسى» لجيوفرى بريريتون[1]، الذى قسم عصور الأدب الفرنسى إلى أقسام ثلاثة: العصور الوسطى، ثم من النهضة حتى الثورة.. ثم من الرومانسية حتى اليوم، وهذا التقسيم يبدو أكثر حيوية وفاعلية من تقسيم «ليجوا» لعصور الأدب الإنجليزى، حيث تتقارب ملامح وتتباعد.. فتتقارب الملامح المكونة لمرحلة النشأة والاستمرار والتكوين فى العصور الوسطى.. بينما تختلف ملامح عصر النهضة وما بعده بقليل عن المرحلة الأولى والتالية، وهو يعطى صورًا واضحة الدلالة على كل قسم من أقسامه الثلاثة: بحي يعرض لفنون الأدب فى غنائية الشعر Medieval فى القسم الأول.. ثم يتكون القسم الثانى من عناصر جزئية موضحة لملامح جزئيته المتكاملة.. ويختار لذلك عناوين دلالية منها فى مجال النثر العام: الخطوط الخارجية. ونافذة على المجتمع وضمير الجماعة.. وهى العناوين المكونة لعناصر اتجاهات النثر Prose بصفة عامة فى خلا هذه الفترة.. ثم يخصص فصلًا للرواية والقصة القصيرة وينتقل إلى فنون المسرح فى فصل آخر، التراجيديا والكوميديا، ثم إلى الشعر من ماروت Marot حتى شينيه Chéneir، أما القسم الثالث فينقسم إلى فصلين للرواية فى القرن التاسع عشر، والقرن العشرين، وفصل ثالث عن النثر الآخر منذ سنة ١٨٠٠، ثم فصلين عن الشعر من لامارتين حتى مالارميه.، ثم الشعر فى القرن العشرين، ومنه ينتقل إلى الفصل الأخير من القسم الثالث، وفيه يتناول المسرح منذ سنة ١٨٠٠، ثم يتبع

---

(١) A short History of French literature; Geoffrey Brereton apelican original. Penguin Books 1965.

أقسامه بفصل حول التواريخ الهامة فى الأدب الفرنسى، مقابلة بالتواريخ الهامة فى التاريخ السياسى الفرنسى، وذلك بدءًا من القرن الحادى عشر الذى نجد أهم حدث تاريخى فيه (ربما من منظورنا العربى) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) نجد فى مقابلها لأحداث التاريخ الأدبى الفرنسى أغانى التروبادور troubadour (١٠٧١ - ١١٢٦).

ونصل إلى نموذج آخر فى مجال تأريخ الآداب العالمية وهو «تاريخ الأدب الفرنسى فى القرنين ١٩ و ٢٠»، الذى نجده ينقسم إلى خمسة أقسام: فى موروث القرن الثامن عشر، وثان فى العصر الرومانتيكى، وثالث فى الحركة الإنسانية، والوضعية ورابع فى انتصار الأفكار الوضعية، وخامس فى العصر الحديث، وهذه الأقسام لا تعالج موضوعات الأدب، ولكنها تنتقل من قسم تاريخى لآخر، وتعنون كل عصر منه بما يلائم ملامحه الأساسية المسيطرة - ويتضح بطبيعة الحال، أن هذا المرجع يتناول فصلاً واحدًا من تاريخ «بريريتون» وهو الفصل الثالث الذى كان عنوانه «من الرومانسية حتى الآن».

وإذا ما وقفنا عند الفصل الأول، والذى يحمل عنوان «موروث القرن الثامن عشر L'Heritage Du XVIII siècle نجده يتناول» روح الفلسفة فى الأدب، وحالة الأدب فى عصر الثورة.. وأدب الثورة. والصحافة، والتراجيديا، والكوميديا، ثم العودة إلى فلسفة القرن الثامن عشر، والأفكار Les idéologues وجان جاك روسو ومدرسته، والنفوذ الأجنبى L'influence etrangère، وممهدا بهذا كله للأدب فى الإمبراطورية الأولى فى القرن التاسع عشر، والذى هو محور الكتاب.

ويلاحظ أن مجال دراسة الأدب الانجليزى أو الفرنسى لا تتجاوز ستة قرون، يمثل القرن الرابع عشر وما قبله بقليل مرحلة تكون اللغة، ثم يتحول التقسيم إلى فترات تتضاءل حتى تصل فى بعض الآداب إلى مالا يزيد على نصف قرن[1]. وينسحب هذا على بقية آداب أوربا الحديثة !! إذا صحت العبارة مثل الإسبانية، والبرتغالية، والإيطالية، والألمانية، وآداب أوربا الشرقية، وهذا جميعًا فيما عدا الأدبين اليونانى واللاتينى، مع ملاحظة أن الأدب اليونانى الحديث ليس امتدادًا فى اللغة على الأقل للأدب اليونانى القديم، كما أن الأدب اللاتينى أصبح جزءًا من التراث لا يقوم على دراسته إلا المختصون فى الجامعات فحسب، لتصبح بذلك اللاتينية واليونانية القديمة لغة تراث فحسب غير مستخدمة.

---

(١) انظر تقسيم الأدب الإنجليزى على سبيل المثال.. فى العصر الفكتورى الذى لا يمتد أكثر من نصف قرن. بل والعصور الحديثة فى الآداب الأخرى «كالواقعية Realism» كمذهب لا يمتد أكثر من هذا سواء فى الأدب الإنجليزى أو الفرنسى.

وهذا أيضا ينسحب على أدب أمريكا الشمالية، والوسطى، والجنوبية وهى منطقة العالم الجديد التى خضعت لآداب أوربا، ولغتها تؤثر فيها، وكان أظهر هذه اللغات والآداب: الإنجليزية وقد سادت فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وبعض مستعمرات صغيرة أخرى فى البحر الكاريبى، وفى أقصى الجنوب، أما ساحل الأرجنتين جزر فولكلاند Falkland والفرنسية فى كندا وبعض مستعمرات جزر أمريكا الوسطى فى بحر الكاريبى كذلك، ثم الإسبانية التى سادت منطقة وسط أمريكا فى المكسيك وجوايتمالا وما حولها من مناطق، ثم كل أمريكا الجنوبية شمالاً ووسطها وجنوبها، ثم البرتغالية والتى سادت البرازيل فحسب من هذه المنطقة (مع ملاحظة أن البرازيل تزيد مساحتها على مساحة هذه المناطق الأسبانية مجتمعة).

ومن هنا يصبح الأدب البرازيلى متصلاً على نحو أو آخر بالآداب البرتغالية، ولكنه اتصال بالجذور أتاح له فرصة التنوع والاختلاف، إذ أن الاستعمار البرتغالى للبرازيل يبدأ مع سنة ١٥٠٠م، وهو أيضا بدء الحياة الأدبية فى هذه المنطقة كما يشير «ماسود موسيس» أو «مسعود موسى»، (وواضح أنه عربى مهاجر من أصل عربى)[١].

ويقسم «مسعود موسى» كتابه إلى: مرحلة التكون والأصول Epoca de Formaçãoe Origens; ثم عصر الباروك Barroco والأركاديسمو Arcadismo ثم عصر الرومانسية Romantismo ثم الواقعية Realismo والرمزية Simbolismo والعصر الحديث Modernismo.

ويرى المؤلف أن المرحلة الأولى تنحصر ما بين عامى ١٥٠٠ و ١٦٠١، وبين عملين على وجه التحديد.. أولهما «الرسالة A Carta» التى كتبها «بيرو فازدى كامينا» سنة ١٥٠٠، وثانيهما مجموعة أشعار «بنتو تيشيرا Bento Teixeira».

وأما المرحلة الثانية فيراها بدءًا من ١٦٠١ حتى سنة ١٧٦٨ مع ظهور مجموعة الأعمال الشعرري Obras Poeticas للشاعر «كلاوديو مانويل داكوستا»... حيث تبدأ المرحلة الثالثة لتنتهى مع سنة ١٨٣٦ تاريخ ظهور مجموعة «جونز الغز دى ماجاليايز Os suspiros Poéticos e Saudaoes لتبدأ مرحلة الرومانسية، وتنتهى بظهور أعمال «ألويزيو أزيفيدو» Aluisio Azevedo سنة ١٨٨١، معلنة تيار الواقعية والطبيعية حتى سنة ١٩٠٢.

وأما المرحلة السادسة، وهى مرحلة الرمزية فيراها مزدهرة فى مرحلة الواقعية، وبدءا من سنة ١٨٩٣ وحتى سنة ١٩٠٢، وممتدة حتى سنة ١٩٢٢.

---

(١) A literatura Brasileira Através dos textos, Massaud Moisés Editora Cultrix São Paulo. Brazil 2 a ediçáo 1973.

ويصل إلى المرحلة الأخيرة فى تقسيمه وهى مرحلة «المعاصرة»، أو «الحداثة» Modermism ويراها تبدأ من العقد الثانى.. فى محاولة لخوض تجربة جديدة فى آفاق الأدب شعره ونثره وقوله الفنى المختلف.. وهو يبدأ من أعمال «ماريـودى أندراد» Mario de Andrade (١٨٩٣ - ١٩٤٥).

ويلاحظ فى «تاريخ الأدب البرازيلى» «لمسعود موسى» أنه يعتمد على «العصور الفنية» فحسب دون تعلق بالمراحل التاريخية منذ احتلال البرازيل سنة ١٥٠٠، ويرى الاعتماد على التقسيم المنبثق عن حركة الأدب، ويجد فى الانتقال من مرحلة لأخرى عمـلًا، يأذن بهـذه الانتقالة.. يتمتع بخصائص جديدة وسمات جديدة تميز عصرًا أدبيًّا مختلفًا.. وربما نجد صورة من هـذه التقسمة فى تـاريخ الآداب الأوربيـة الأخرى لمختلفـة وفى تاريـخ الأدب الإنجليزى والفرنسى كما رأينا..

ويتميز تاريخ «مسعود موسى» بأنه يعتمد على «النصوص الأدبية»، ولذلك فإنه يسمى كتابه «الأدب البرازيلى من خلال النصوص» A literatura Brasileira Atrvés dos Textos، ولكنه لا يتوقف عند كل نصوص المرحلة.. ولكن يقتطف النماذج ذات الأثر التحويلى فى تاريخ الأدب، والتى تتميز بالملامح المغايرة، أو التى تبدو منها سمات المرحلة الأدبية التى يؤرخ لها.

وأما فى «تاريخ الأدب العربى» فإن التقسيم ينطلق من العصور التاريخية.. فتبدو عصور الأدب العربى على هذا النحو:

العصر الجاهلى: ويقصد به عادة العصر الممتد قبل الهجرة سنة ٦٢٢م، وهم يقسمونه إلى جاهلية أولى وجاهلية ثانية، تصلان فى مجموعهما إلى ثلاثمائة عام.. ليس حولها خبر مؤكد فيما قبل القرن السابق على الإسلام.

العصر الإسلامى: ويقصد به عادة عصر صدر الإسلام أى حوالى نصف قرن منـذ بدء الدعوة الإسلامية، وحتى ظهور الدولة الأموية مرورًا بعصر الخلفاء الراشدين..

العصر الأموى: ويقصد به عصر حكم أسرة بنى أمية فى حوالى قرن من الزمان من سنة ٤١ هـ حتى سنة ١٣٢ هـ.

العصر العباسى الأول: وهو العصر البادىء من بداية حكم بنى العباس سنة ١٣٢ هـ حتى سنة ٢٣٢ هـ.

العصر العباسى الثانى: ويبدأ من سنة ٢٣٢ هـ. وينتهى لسنة ٦٥٦ هـ مع غارات التتار.

العصر العثمانى: ويشغل حيز الدولة العثمانية برمتها على الشام ومصر وأرجاء العالم العربى.

الأدب الأندلسى: ويشمل فترة حكم العرب للأندلس، وينقسم داخليًا إلى عصور.

ثم الأدب فى مصر فى عصر الفاطميين، أو الأيوبيين، أو الطولونيين، أو المماليك.. وعلى غرارها الأدب فى أرجاء العالم العربى المختلفة فى المغرب العربى، أو المشرق العربى.. حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م كان بدء العصر الحديث.

ولا شك فى أن هذا التقسيم تقليدى، حيث كان الأدب يدرس جزءًا من التاريخ، بحيث يدخل فى إطار ما يعرف بالحياة العقلية والفنون والعلوم والآداب، ومن هنا استمرت هذه «المسلمة» النقدية التاريخية مع ما استمر من مسلمات نجدنا فى حاجة إلى إعادة النظر فيها والأخذ بها أو رفضها.. إذ أن المؤرخ للأدب الحديث فى مصر، لا يجد مبررًا على الإطلاق للبدء من الحملة الفرنسية، وهو يرى مدرسة البعث والإحياء تزدهر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وليس فى بدايته.

إشكالية المصطلح النقدى:

قد يبدو من مقارنة مناهج تأريخ الأدب العربى والغربى،ارتباط تاريخ الأدب الغربى بمفاهيم اصطلاحية نقدية Critical Idioms.. تنبع عادة من طبيعة المرحلة التى يوصف بها الأدب، أو كنتيجة لمزاج عام يسيطر على مجال العطاء الفنى أو الأدبى، وبمعنى آخر فإن ابتعاد تاريخ الأدب الغربى – بعامة – عن تاريخه السياسى: أتاح الفرصة للنظر فى مناطق المتغير الفنى الزمانية.. وأصبح التأريخ ببدايات ظهور المذاهب الأدبية أمرًا واردًا، بل وضروريًا.. ومن هنا نجد التاريخ الأدبى يجمع على البدء بالعصر الكلاسيكى.. وهى تسمية لا تصلح للتأريخ السياسى للحقبة الزمنية المواكبة له.. ثم يعكف على عصر النهضة، أو «الرينسانس» وهو مصطلح يصلح للتاريخ، كما يصلح للأدب، وليس دخيلًا من أحدهما على الآخر، بل يكاد يكون مطابقًا للمواصفات الفنية المميزة لإنتاج عصره الأدبى من حيث طبائع التغيير والتجديد فيه، وينتقل منه إلى عصر الرومانسية والواقعية ثم الحداثة (على الرغم من ارتباطها غير الوثيق أحيانا بأحدث ما فى العصور زمانيًا).

والإشكالية فى المصطلح النقدى – فى تصورى – غير واردة – فى منظور مؤرخى الأدب القدماء على الأقل.. فلم يكن الاختلاف مذهبيًا فى الأدب بقدر ما كان فى علوم اللغة والنحو والبلاغة والمعانى والبيان.. وربما بدأ الفكر العربى واضحًا فى عصوره المختلفة فى هذا المجال على

وجه التحديد.. بل لم يكن يبدو خلاف حول «المصطلح النقدى» فى أى مجال آخر من مجالات الفكر العربى..

وقد تبدو الإشكالية أكثر وضوحًا عند بعض من أخذ بعلوم النقد الحديثة فى الآداب الغربية، واستعار عددًا من المفاهيم وردت مع ما استعير من فنون مستحدثة.. ولم يكن بديهيًا لمن تمثل الشعر الغربى وأخذ يقلده أن ينفر من مصطلحه، وكذا فى المسرح أو الرواية أو القصة.. وليس أدل على ذلك من مصطلح «الشعر الحر» فى مقابل Vers libre بينما الشعر الجديد فى مدرسة صلاح عبدالصبور وغيره «غير حر»، بل هو متقيد بقيود فن الشعر والعروض، والموسيقى، والقافية الداخلية، واللغة والبلاغة ونحوها.. إذا ما كان هناك من خلاف فلا يبدو فى غير «عدد التفعيلات» ليس غير.

أما «المصطلح النقدى» فى التراث، فلم يبد على قدر من الأهمية بحكم ارتباط مؤرخ الأدب بعصور التاريخ السياسى كذلك، واكتفائه بالعنوان المستمد من العصر التاريخى ليصبح أيضًا عنوانًا ينسحب على العصر الأدبى حتى العصر الحديث.

ومن الطبيعى نتيجة لهذا أن تنحصر المهمة التاريخية فى حركة التسجيل دون النقد، أو تجمع بينهما مضيفة «الموضوع» فحسب بحيث يتصنف رثاء، أو هجاء أو مدحًا أو نحو ذلك دون توجه «مضمونى»، أو كشف «شكلى» من أى نوع.. يتيح الفرصة للوقوف عند التحولات الفنية الجذرية فى تاريخ الأدب العربى.

الرؤية المنهجية:

تنقسم دراسات أستاذنا الكبير الدكتور شوقى ضيف إلى قسمين رئيسيين فى تأريخ الأدب العربى:

- دراسات تأريخية يسود فيها الجانب التأريخى العلمى، على الجانب النقدى التحليلى المتذوق.

- دراسات تأريخية يسود فيها الجانب النقدى العلمى، على الجانب التأريخى المتتبع.

ومثالنا على القسم الأول مجموعة تاريخ الأدب العربى، الذى بدأ بالعصر الجاهلى، ثم الإسلامى، ثم العباسى الأول، فالعباسى الثانى، فعصر الدول والإمارات جـ ١ (الجزيرة العربية - العراق - إيران)، وجـ ٢ (مصر والشام).

ومثالنا على القسم الثانى مجموعة دراساته فى التطور والتجديد فى الشعر الأموى. والفن

ومذاهبه فى الشعر العربى. والفن ومذاهبه فى النثر العربى، والشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، والأدب العربى المعاصر فى مصر، ودراسات فى الشعر العربى المعاصر، ثم شوقى شاعر العصر الحديث، والبارودى رائد الشعر الحديث[1].

وموسوعية الأداء سمة من أهم السمات التى يتميز بها الدكتور شوقى ضيف، فضلاً عن الحس النقدى فائق الدقة.. والذى يتمثل فى منهجه فى الاستقصاء، وترتيب المادة التاريخية، والكشف عن هوية عدد من الملامح فى مراحل تأريخ الأدب العربى ونقدخ

كما أن السمة العلمية تبدو واضحة فى القسم التاريخى من دراساته (تاريخ الأدب العربى)، والتى يدل صدورها على معايشة عملية زمنية متعاقبة، بدأت بالعصر الجاهلى فى تعاقب، وصل إلى عصر الدول والإمارات فى مصر والشام مرورًا بالعصر الإسلامى، ثم العباسى الأول، ثم العباسى الثانى ثم عصر الدول والإمارات فى العراق وإيران والجزيرة العربية. بينما نجد القسم التاريخى النقدى يخضع لمتغيرات التذوق لحاجة الدراسة.. ولهذا نجده لا يصدر فى تعاقب تاريخى إذ لا حاجة فيه لذلك، وإنما يصدر طواعية فى إطار تكامل التصور النهجى النقدى المراد التعبير عنه.. فتذوق الأدب العربى المعاصر، ودراسات الشعر الحديث تأتى فى الخمسينات والبارودى فى الستينات، يسبقهما العصر الأموى ويليهما العصر الجاهلى.. أو نحو ذلك.. وهو لم يجد حاجة ماسة لمعايشة التراث الأدبى فى عصوره المختلفة متعاقبة، إلا عندما وجد الضرورة الملحة لذلك.. فالتعاقب قد يفيد فى مجال رصد الظواهر فى الدراسات النقدية، ولكنه حتمى فى مجال دراسات التاريخ الأدبى.

أولاً: تاريخ الأدب العربى:

قد تبدو محاولة اكتشاف المنهج عسيرة.. وهو المنهج العلمى التأريخى الذى صدر فيه د. شوقى ضيف عن دراسة تاريخ الأدب العربى فى مجلداته المتعددة، وعلى الرغم من محاولات التنقيب والتفتيش فى تضاعيف دراساته هذه، فصعوبة الجزم باكتشاف المنهج قائمة.. وإن كانت محاولات «التصور» تبدو بديلاً عن تنائينا.

أول ما يبدو من تصور حول «المنهج» أننا أمام باحث يضع تمثلا دقيقا للعصر الأدبى الذى يؤرخ له.. مرتبًا شاملاً، بحيث تتكامل فيه الجزئيات، وتكون عناصر حية متكاملة لتوضح صورة العصر الأدبية بجميع عوامل تأثراتها وتفاعلاتها. ولذلك فإن خوض عالم «الحياة الأدبية»

(١) وبذلك يمثل د. شوقى ضيف صورة دارس الأدب العربى الذى استطاع أن يغطى مساحته الزمنية والمكانية المتسعة.. وطبعات هذه الدراسات جميعا طبع دار المعارف لأكثر من مرة حتى أن بعض هذه الدراسات طبع للمرة العاشرة بها.

يتطلب بداهة خوض عالم الحياة السياسية، والاجتماعية والعقلية. ولا تتكشف ضرورة خوض هذه العوالم إلا بعد اكتشاف عناصر تأثيرها فى الحياة الفكرية بعامة والأدبية بخاصة.. وربما يؤكد هذا عصر الارتباط العضوى بين الأدب وبيئته، باعتبار الأديب واسطة العلاقة بين الطرفين[1].

ولقد تنوعت طرائق الكشف عن عناصر الحية بأرجائها من عصر لعصر.. فبينما نجدها فى العصر العباسى (الأول والثانى) تلتزم العناصر المباشرة (سياسية - اجتماعية - عقلية) نجدها فى العصر الجاهلى - بحكم طبيعة البداية فى الأدب والباحث - تخوض تجربة التعريف بالأدب وجزيرة العرب والجنس السامى، ثم الحياة الجاهلية بعناصرها السياسية والاجتماعية والعقائدية، فهى باعتبارها مرحلة بداية أدب أمة تخوض تجربة التعريف بالعرب، وأصلهم، ولغتهم، وتكونها، وهو أيضًا ما يحتاجه الباحث فى هذه المرحلة لينطلق منه لتتبع تاريخ وأدب هذه الأمة فى عصورها التالية.

ولأن معطيات الإسلام شكلت محورًا مغيرًا فى ظواهر الحياة بأرجائها المختلفة، سياسية واجتماعية وعقلية.. بل محورًا أدبيًا مغيرًا فيما قدمته من ظواهر فنية وأسلوبية جديدة و«حديثة»، فلقد تغيرت محاور التناول التاريخى فى العرض للأدب الإسلامى[2] سواء فى مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) التى تنتهى ببدايات العقد الثالث للهجرة (سنة ٤١ هـ على وجه التحديد)، أو مرحلته الثانية (عصر الأمويين) التى تنتهى ببدايات العقد الثالث بعد المائة. (سنة ١٣٢ هـ على وجه التحديد وهو بداية عصر الخلافة العباسية الأولى)، فيتناول فى الفصل الأول من الكتاب الأول «الإسلام» كقيم روحية، وعقلية واجتماعية وإنسانية، ومنه إل نصوصه: القرآن الكريم، والحديث النبوى، والأثر المتروك فى اللغة والأدب.. ثم تبدو الآثار المباشرة فى محتوى الشعر (شعر الفتوح، والمدائح النبوية، والشعر المخضرم المتأثر بالإسلام، وفى أنواع النثر وخاصة الخطابة والكتابة.. ولا يلبث أن يتتبع كذلك الحياة الإسلامية بصفة عامة امتزاجها بالشعوب المجاورة، وأثرها فيها، وتأثرها بها، ومظاهر هذا كله فى فن العربية الأول - الشعر - وفن النثر على السواء.

ويبدو منهج التتبع الدقيق لظواهر الحياة بأنواعها واضحًا فى العصر العباسى الأول والثانى[3]، ربما بحكم استقرار المفاهيم السابقة والتى تعرض لها فى العصرين الجاهلى

---

(١) انظر: فصول فى الأدب: التراث - النقد - النظرية. الكتاب الثالث د. حلمى بدير. طبعة دار المعارف ١٩٨٣.

(٢) العصر الإسلامى: د. شوقى ضيف. دار المعارف. الطبعة الثامنة ١٩٧٨.

(٣) العصر العباسى الأول: د. شوقى ضيف. دار المعارف الطبعة السابقة ١٩٧٨ والعصر العباسى الثانى: دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

والإسلامى.. وربما بحكم تزاحم المؤثرات المختلفة وتراكبها وتشابكها فى صنع صورة الحياة الأدبية لهذا العصر، ومن هنا كان وضوح الرؤية الشمولية المعبرة عن الحركة الحية المكونة لعناصر الإبداع والتفكير.. فى الحياة السياسية: العباسيون والعلويون، والخوارج، وثوراتهم، والنظم السياسية، والإدارية والمدن.. فى الحياة الاجتماعية: مظاهر الترف والثراء والرخاء، وما استتبع من رقيق، وجوار، وغناء، ومجون، ونحوها. وفى الحياة العقلية: واشتباكها وأثر الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى.. وتراكمية الأثر ووضوحه فى الحركة العلمية، وعلوم اللغة والتاريخ والدين وعلم الكلام والفلسفة.. وانطلاق الثقافة العربية إلى تجارب عقلية مجاورة.. والأثر المترتب على حركة الشعر والشعراء، والنثر والناثرين، ووضوح رؤى التشيع والانقسام، والمذهبية والخصوصية الفردية والجماعية فى شعر الزهد والغزل والجون والزندقة.. وأيضًا الأثر المترتب فى حركة النثر وتطور فنونه فى الخطب والوعظ والقصص والمناظرات والرسائل ونحوها، وأعلام كل فن منها.. وملامح الشكلية الفنية منها..

ومع اختلاف فى المضمون فى عناصر الحياة الثلاثة نجد العصر العباسى الثانى، يقف أمام الظواهر السابقة أيضًا فى تكاثف للرؤية، يحول شمول جوانب التأثير المختلفة، والمشتبكة فى صنع الحركة الأدبية وظواهرها المتنوعة، مع اختلاف يسير ناجم عن الاختلاف الطبيعى فى تعاقب العصور التاريخية.

وهنا تظهر الرؤية الشمولية فى تمثل حركة الأدب العربى على مر عصوره.. وذلك فى المقدمة الإيضاحية التى يضعها أستاذنا دكتور شوقى ضيف كتابه عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية - العراق - إيران)[1]. والتى يقدم من خلالها تمثلًا جديدًا لعصور الأدب العربى تقف بالعصر العباسى الثانينذ سنة ٣٣٤هـ، ليبدأ عصر الدول والإمارات الذى يشمل الامتداد الزمنى من ٣٣٤هـ حتى بدء العصر الحديث. فى أرجاء العالم العربى.. باعتبار تقلص زعامة العباسيين للدول والإمارات فى حدود بغداد فحسب.. وهنا تصبح التقسمة الجديدة وقد اعتدت بالقرون الثمانية بين القرن الرابع والقرن الثانى عشر عصرًا وسيطًا يشبه سمة العصور الوسطى الأوربية.. مع ما تميزت من سمات، مع اختلاف الظلال والتفاصيل. ونجد عصور الأدب فى هذا التقسيم الجديد تنقسم إلى:

العصر الجاهلى - والعصر الإسلامى - والعصر العباسى - والعصر الوسيط - والعصر الحديث.

وهى من هذا المنطلق ليست تقسمة تاريخية بقدر ما تتمتع أقصى سمات التقسيمات الفنية..

---

(١) طبعة دار المعارف. يونية ١٩٨٠ طبعة أولى.

بحيث يبدو كل عصر منها ممثلاً لملامحه، منتقلاً عبر التاريخ بخصوصيات تميزه فى حياته العقلية والإبداعية عن غيره من العصور الأدبية والفكرية والعقلية.

وكان المؤرخون يمتدون بالعصر العباسى الثانى حتى سنة ٦٥٦ هـ «حين أغار قطعان التتار حتى الغزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثمانى»[١].

ولتسمية هذه الفترة الممتدة بين سنة ٣٣٤ هـ والعصر الحديث بعصر الدول والإمارات عدة أسباب أولها الارتباط الوثيق بين أرجاء الوطن العربى على الرغم من ظواهر الضعف والتفكك وغيرها - ويجد االدكتور شوقى فى علاقة الفكر أوثق العرى. ويرى أن الدليل على التقارب الوجدانى بين أرجاء الوطن العربى فى هذه الفترة أن «العلماء - كانوا - حين يؤلفون كتاب تراجم عاما يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين فى هذا الوطن الكبير، وكانوا إذا ألفوا كتابًا فى تراجم علم كالقراءات أو التفسير، أو النحو، أو حتى فى فرع كفقه الشافعية أو المالكية أو الأحناف جمعوا فيه علماءه فى جميع البلدان العربية. بالمثل حين يؤلفون أحيانًا فى تراجم الشعراء»[٢].

وهو يقسم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام مكانية صدر منها القسمان الأولان: أحدهما يخص الجزيرة العربية، والعراق وإيران، والثانى يخص مصر والشام.. ويشيغر ألى الثالث الذى سيخصص - بإذن الله - للمغرب والأندلس - وبهذا تغطى دراسات تاريخ الأدب العربى المساحة المكانية الممتدة من المحيط إلى الخليج.

وتبدو واسطة التعامل مع زمانية ومكانية العصر.. فى نماذج التعامل مع عطائها الأدبى الذى هو محور الدراسات فى المقام الأول، ومنهجية التعريف بالظاهرة الأدبية أو الشخصية المبدعة.

التعريف بالظواهر الأدبية:

وهى الحركات الإبداعية المواكبة لمزاج العصر، تبدو ثمرة له، أو رد فعل فى مواجهته.. تبدأ من ظاهرة «الصعلكة» و «الفروسية» فى العصر الجاهلى، وتدخل فى طرف منها كثمرة له (الفروسية)، وفى جانب آخر كرد فعل مضاد له (الصعلكة)،تناولها الدكتور شوقى ضيف فى الفصل الحادى عشر من العصر الجاهلى، تحت عنوان، جامع «طوائف من الشعراء».. واستخدام «طوائف» معبر عن هذه المذهبية، كما سنجده فى العصر الإسلامى، والعباسى الأول والثانى

(١) المصدر السابق: ص ٥ وما بعدها من المقدمة.

(٢) المصدر السابق: ص ٦

وعصر الدول والإمارات، وينحصر فى العصر الإسلامى فى ظاهرة «الغزل الصريح» و «الغزل العذرى»، وظاهرة «الزهد».. وتبدو فى العصر العباسى فى امتداد بعض الظواهر كالإباحية، والزهد، ونشوء بعض الظواهر الشعرية الأخرى «كالاعتزالية» و «الشعبية».

وتبدو الظواهر الأدبية - كما سبقت الإشارة - ممتدة فى بعضها عبر العصور والأجيال وناشئة فى عصر دون آخر مواكبة لحركة المد المتغيرة وحركته الفكرية ومتغيرات السياسة والتاريخ.. وتبدو الظاهرة مفسرة تكشف عن طبيعة حركتها.. فى ظاهرة المجون والزندقة فى العصر العباسى الأول (وكانت فى العصر الإسلامى تحمل عنوان اللهو والمجون) نجد إجمال مسبب الظاهرة «فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية، وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيمًا، وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كانت أسواقًا للعبث، وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور - عند أبى نواس وأحزابه - انحطاطًا خلقيًا شنيعًا، وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء، مما أدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية، إذ أخذت مكان المرأة العربية الحرة، وكن مختلفات الأجناس، وكثيرات منهن كن قد نشئن على اللهو والمجون والابتذال، والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة»[1].

والإجمال الباحث وراء مسبب الظاهرة يتبعه رصد لمظاهرها فى الكوفة - السابقة إليها - والبصرة وبغداد، ومظاهرها فى شعر والبة ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد.. وحماد عجرد - الذى يفرد له عنوانًا - ثم ينتقل إلى صالح بن عبد القدوس كظاهرة تكمل صورة المجون والزندقة فى هذا العصر مع تتبع دقيق لظواهرها عنده.. وارتداده لدين آبائه.

ولا شك أن تتبع الظواهر الأدبية ينبع من تمثل دقيق للحركة العقلية المتكاملة تتشابك فيها عوامل المؤثرات جميعًا.. وهى المؤثرات الداخلة فى تكوين المعطى الفكرى الرئيسى، وهى كذلك محور يحتاجه الباحث والناقد على السواء.. ويقوم المؤرخ فى هذه الحالة بدور الناقد أولا.. يسبق فيه دور الراصد العلمى للظاهرة، وتبدو دقة التعامل النقدى مع الظواهر الأدبية فى مجال المقارنة بين آرائه وآراء سابقيه، أو معاصريه فيها وقد استطاع أن يعلم تلاميذه منهجه التاريخى النقدى المعتمد على استقراء واستقصاء للفكرة من جميع جوانبها، ووقوف على كل ما قيل حولها. ثم محاولة الوصول إلى الرأى الفصل فيها.. أو الأقرب إلى المنطق والمعقول بدلالة

---

(١) العصر العباسى الأول: دار المعارف، الطبعة السابعة. ص ٣٨٢.

التاريخ والأحداث. وقد استطاع بهذا التحليل العلمى إثبات «نقد النثر» لصاحبه ابن وهب بعد أن وقر طويلًا فى الأذهان نسبته لقدامة.

ولقد كانت فكرة «الأصالة» و «المعاصرة» من الأفكار الرئيسية التى شغلت أستاذنا فى تتبعه لتاريخ الأدب العربى.. منطلقًا من «العلم» بدقائق الأخبار وتفصيلاتها.. نجده يضع تصوره فى مقدمة دراساته فى «العصر الإسلامى».. ويوضحها فى مقدمة «العصر العباسى الأول»:

«وقد بسطت القول فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ازدهارًا رائعًا، إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها تمثلًا دقيقًا، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى، يجمع حينًا بين الجزالة والرصانة، وحينًا يجمع بين الرقة والعذوبة، وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة، وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار فى عقولهم ونفوسهم كثيرًا من المعانى والخواطر التى لا تكاد تحصى، ودفعهم إلى التطور بموضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعانى والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال، هى صفحة الشعر التعليمى، الذى صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانى منظومات طريفة، واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة»[1].

وفى أكثر من موضع تبدو ظاهرة «الموسوعية» فى العلم بعلوم العربية وتاريخها جلية واضحة، يحدثك عن «مزاج هذا العصر The spirit of the age وهو ملم بأكثر أرجائه، محيط بكثير من دقائقه.. وتأليفه فى علوم العربية المختلفة، ويحدثك عن الظاهرة الأدبية حديث الخبير بفنونها المضطلع بعبء التفكير فى دقائقها، ويستشهد بشعر شعرائها فيبدو ملما بأدق خصائصه وأدق قصائده ومقطوعاته الأصلية أو الدخيلة.

وبالإضافة إلى المقتطع السابق من مقدمة «العصر الأول» تأمل معى هذا المقتطف من مقدمة «العصر العباسى الثانى».

«وصورت نشاط الشعر حينئذ، وكيف تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلًا تامًا، وكيف أودعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة، مما جعلهم يجدون فى الموضوعات القديمة والأخرى المستحدثة فى العصر العباسى الأول صورًا مختلفة من التجديد، تحفل بما لا يكاد يحصى أو يستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المبتدعة وظلوا ينمون الشعر

---

(١) العصر العباسى الأول: ص.. المقدمة. الطبعة السابعة.

التعليمى، وينظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة»[1].

وهذا التمثل الدقيق لما هو «أصيل» وما هو «معاصر» فى التراث أمر يحتاج إلى تمثل واع بمدلول الأصالة، ومدلول المعاصرة فى إرتباطها بالمتغير الزمنى.. وأثر «الزمانية» فى تحويل «المعاصرة» إلى أصالة.. وفى «تأصيل» الموروث. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فى ظواهر المعاصرة «المضمونية» و«البنائية».. أى الداخلة فى إطار المعنى، أو الداخلة فى إطار الشكل، وقد حدث فى كلا الإطارين تغير يتيح الفرصة للوقوف على «الثابت» و «المتغير» فى كل عصر من عصور الأدب العربى. ومن هنا فإن «المعاصرة» إذا ما اتفقنا على ارتباطها «بالحداثة» معنويًا، متغير مرتبط بالزمانية.. أى لا يستقل بمعزل عنه. وهى فكرة أدركها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، وانتقل بها من نطاق التعامل النظرى - غير المجدى أحيانًا - إلى نطاق التعامل التطبيقى. ورأى من خلالها حركات «الثبوت» و «الانتقال» من عصر لعصر.. فى تعاقب متتابع يحتاج إلى بصيرة نافذة وعلم مدقق. وهو ماهيأ له أيضًا الوقوف على الظواهر الشعرية الفردية فى «الشخصيات الأدبية» بصفة خاصة.

المبدع والنص:

رأينا أن علاقة الدراسة الأدبية بظواهر بيئتها علاقة متكاملة عند أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، تنبع من تقدير كامل لعناصر المكونات الرئيسية فى بنية العمل الأدبى.. التى تنبع فى الأصل من اتصال المبدع المستوثق من علاقته الحميمة بالبيئة ومتغيراتها المختلفة، ولذلك كان عكوف الكاتب على البيئة، لا ينبع من رغبة توسعية فى الدراسة دون مبرر - شأن كثير من الدراسات التى تميل إلى سرد ما سبق سرده فى الدراسات والأبحاث ونحوها - ولكن من رغبة «إيضاحية» لعناصر تكوين «الرؤية» المتكاملة من «روح العصر» The spirit of the age واكتشاف «روح العصر» منبىء بالحتم عن «روح النص» والمبدع.

نموذج أمامنا من «العصر الجاهلى» يمثل «التنقيب« العلمى، و ، الكشف» عن عناصر التكوين الرئيسية للحياة الجاهلية.. تطمئن إلى آراء، وتفزع إلى أخرى، وتنفر من ثالثة.. فهى فى عناصر الاطمئنان مكونة لصورة المجتمع لهذا العصر بشعبه - أو شعوبه - وإماراته وأحوال المجتمع وعقائده، ولغته وشعره وشعرائه.. وهى تكاد تنتشر من العام - عنصر المكان - إلى درجة أقل عمومية وأكثر تخصيصًا - عنصر الزمان - إلى درجات تتتابع فى التخصص لتنتقل إلى الحياة فاللغة فالشعر فالشاعر.. فى تدرج هرمى تبدو «الجزيرة العربية» قاعدته. وعلى قمته «الشاعر».. كجزء تتكاتف العناصر مجتمعة لتكوين قمته.

---

(١) العصر العباسى الثانى: المقدمة - الطبعة الثالثة. ص ٥.

وهذا التنوع المفسر لعناصر الدراسة ينسحب بالتالى على عناصر تكوين «النص المبدع» المنتقل من «تكونات الشاعر» إلى «النص» وما نجده متتابعًا من عناصر تكوينه من معطيات: القبيلة - الأسرة - الشاعر - الديوان - الشعر.

نجد هذا فى تعامله مع امرئ القيس، والنابغة الذبيانى، وزهير بن أبى سلمى، والأعشى[1]. وهذه عناصر أيضًا لا تغفل فى تناول الظواهر الأدبية المصاحبة لكل عصر وجيل. (هذا المنهج يعنى ضمنًا أن النص لا يفسر بمعزل عن مبدعه الذى هو الواسطة بين النص وعصره.. مع ملاحظة أن منهج البنائية Structuralism على الرغم من رفضه صلة النص ببيئته وبالتبعية مبدعه، فإنه يستقى تفسيره من معرفة مسبقة بالنص والمبدع، وهى خلفية تدخل فى مجال معارف الناقد.. ماذا يمكنه أن يتناول فيه)؟!.

ويبدو هذا بصورة أوضح وأكثر تكاملية فى دراساته للبارودى وشوقى، وابن زيدون، وهم الذين أفرد لهم دراسات خاصة بين شعراء العربية فى القديم والحديث.

وهو يلخص فى البارودى صفة «الرؤية الشمولية» المتكاملة فى منهجه التاريخى النقدى، حيث ينطلق فى دراسته من العصر والسيرة إلى الشعر والمنزلة الشعرية.. ونحن نتخيل طبيعة التتابع فى انطلاق الشعر - ككائن حى - من العصر مرورًا بالسيرة وهذه محققة لمعادلة: البيئة - الشاعر - النص. وقد يميل البعض إلى تسميته بالمنهج الاجتماعى فى تفسير النص، أو عوامل التأثير البيئية، أو نحوها من كليشيهات تتفق أو تختلف.. تظلم «النص والمبدع» أكثر مما تنصفهما.. ونحن فى مجال «التقييم» evaluation . المعتمد على الاعتداد «بالنص».. وليس «بالمبدع» و «البيئة» إلا من حيث علاقتها به.. ومن هنا تصبح «القيمة النصية» نابعة من عوامل اجتماع هذه الروافد المؤثرة فيه، وفى تكوينه «البنائى»[1].

ثانيا: الدراسات النقدية:

يقدم الدكتور شوقى ضيف عددًا آخر من الدراسات النقدية التى تبدأ من المنطلق النقدى العلمى لا من المنطلق التاريخى التتبعى فحسب.. وهذه الدراسات تميل إلى تعقب الظواهر

---

(١) انظر: العصر الجاهلى: د. شوقى ضيف. دار المعارف. وانظر بحث د. كمال أبو ديب مجلة فصول. المجلد الرابع العدد الثانى: يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤ ص ٩٢ بعنوان «نحو منهج بنيوى فى تحليل الشعر الجاهلى: معلقة امرئ القيس - الرؤية الشبقية».

وقد أشرنا فى دراسة سابقة إلى ضرورة الأخذ «بالتفسير الأدبى للأدب» والعودة «بالنص» لمكانته الطبيعية بعد أن ضاع فى خضم التفسيرات النفسية والتاريخية والاجتماعية والحضارية والعلمية ونحوها. انظر مقدمة «المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث» د. حلمى بدير دار المعارف ١٩٨٢.

المتميزة، إما لمرحلة من مراحل تطور الأدب «التطور والتجديد فى الشعر الأموى»، أو الظاهرة فى الشعر والنثر فى عصور الأدب العربى المختلفة. «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و «الفن ومذاهبه فى النثر العربى». أو «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور»، أو فى عصر منه «الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية».

ولعل الوقوف عند دراسة منها يمكن بها الكشف عن عنصر «الرؤية الشمولية» المتكاملة، والتى لم تعد تتوفر عند كثير من الباحثين من تلامذته أو تلامذتهم. حيث تميل «روح العصر» والجيل الحديث منه إلى ما يعرف «بالتخصص الدقيق».

فدراسة حول «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» دراسة شاقة،قد لا يستطيع الاضطلاع بها باحث من الباحثين المحدثين.. الذين وجدوا فى «التخصص الدقيق» مهربًا مريحًا من مشقة موسوعية القراءة.. وعادة ما يقتصر التخصص الدقيق على متابعة كتب أو كتيبات محدودة العدد والقيمة.. أما «الفن ومذاهبه» فعلاقة حميمة بين الدارس وتراثه العربى جميعًا بعصوره الجاهلية، والإسلامية، والأموية، والعباسية، والعصر الوسيط أيضًا فى مصر والأندلس، وهو العصر المنتهى ببداية العصر الحديث. شاملًا الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين.

والدراسة تشتمل على ثلاثة كتب: الأول ويتناول عنصر: الصنعة، والتصنيع، ويستخدم لها اسم «مذهب»،ومنه ينتقل إلى مذهب التصنع فى الكتاب الثانى، ثم ينتقل فى الكتاب الثالث إلى المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر، ومن هنا فإن رؤيته الشمولية للأدب العربى تنبع من زاوية الكشف عن عناصر «مذهبية» فى فن الشعر، وهو ينطلق من نظرية نقد عربية خالصة. بدت واضحة فى نماذج معروفة فى التراث العربى جميعًا. بدءًا من زهير بن أبى سلمى فى مذهب الصنعة، وأبى تمام فى مذهب التصنيع والمتنبى فى مذهب التصنع، وهو يجد فى هذه المذاهب «مراحل» مر بها الشعر العربى جميعًا حتى عادت وتمثلتها مدرسة البعث تمثلًا جيدًا عند البارودى خاصة.. ولكنه لا يجد فى حركات التجديد الحديثة أملا يرتجى.. لعدد من الأسباب: لزعمها التماس «النموذج الغربى» وهى لم تلتمسه أو تتعمقه، ولبعدها عن «النموذج العربى» الذى لم تستطع الاقتراب منه وتمثله.. «وليس من شك فى أنه حين ينظم الاتصال بين شعرائنا المعاصرين، وبين المذاهب الفنية القديمة، التى وصفناها من صنعة وتصنيع وتصنع، كما ينظم بينهم وبين الفن الغربى وطرائقه، فيقبلون على تعمق أصول الصناعة الفنية عند العرب، كما يقبلون على تعمق المناهج الفنية والفلسفية عند الغرب ولا يكتفون بذلك. بل يتجهون شطر المشرق فيطلعون على آداب الفرس والترك والهند والأمم الشرقية الأخرى، ولكن لا ليستعيروا وينقلوا، أو يترجموا، بل ليتفاعلوا ويستوعبوا، ويعبروا عن شعورهم وسرائرهم تعبيرًا لهم مادته وصورته، وما فيه من

معارض التفكير ومنازع الوجدان. حينئذ تجد قافلة التجديد طريقها الذى أخطأته، ودليلها الذى ضلته»[1].

وقد تبدو «الرؤية الشمولية» المتكاملة لتاريخ الأدب العربى متمثلة فى عدد كبير جدًّا من الجزئيات، التى لا تستطيع بعض الأبحاث الزاعمة تخصصها الدقيق استيعابها.. بل لعل تمثل جزئيات «الرؤية» يبدو واضحًا منذ البدايات الأولى لدراساته.. «فالنقد فى كتاب الأغانى» الذى كان موضوع رسالته للماجستير أوجد عددًا من الصلات الوثيقة بينه وبين شعراء «الأغانى» جميعًا من خلال تتبعه لأحكام «الأصفهانى» وغيره النقدية التى رويت فيه. وهى رؤية تستثمر بعد ذلك بوضوح فى جزئيات عدة.. وبمعنى آخر فإن علاقات قوية تنشأ من صلات أبحاثه بعضها بالبعض الآخر.. تتمثل فى عدد من العناصر الأولية ثم لا تلبث وتتبلور فى أفكار متكاملة.. «الشعر الشعبى» على سبيل المثال عنصر أولى لا يغفله عند عدد من الشعراء، ثم فى عدد من المراحل.. ولا يلبث أن يصبح موضوعًا متكاملاً مستقلاً «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور». وعنصر الصناعة الفنية ومكوناتها لا فى الشعر فحسب ولكن فى النثر كذلك.. هى جماع أفكار كثيرة متناثرة اكتملت عناصرها وكونت النظرية الكاملة.. وهذه جميعًا عناصر يمكن من خلالها الكشف عن رؤية أكثر شمولية، وهى رؤية «النظرية الأدبية» عند شوقى ضيف.

إن أهم ما يلفت نظر الباحث فى دراسات شوقى ضيف الأدبية والنقدية، أنه أستاذ يعتد كل الاعتداد بعلوم العربية جميعًا.. وهو رائد موسوعى، عالم مدقق بما تعنيه هذه الصفات من معان.

مختتم:

وبعـد..

فقد يبدو من الواضح أن التعامل فى مجال « الشمولية» فى تاريخ الأدب عند شوقى ضيف قد بين عددًا من الملاحظات الأولية تتمثل فى:

- أن «تاريخ الأدب العربى» يمثل منهجًا جديدًا غير مسبوق فى مجال دراسة تاريخية نقدية علمية أدبية مدققة.. مستوعبة تعكف على عصور الأدب العربى فى شعور وحس واع تمامًا بجزئيات حركة الأدب فى عصوره المختلفة.. ومن هنا بدت صورة «الرؤية الشمولية» واضحة فى جزئياتها المختلفة.

- أن منهج دراسة تاريخ الأدب العربى قد اختلف عن مناهج دراسة الآداب العالمية المختلفة، التى لا يزيد عمر أى منها على ستة قرون أو يزيد قليلاً، بينما يمتد عمر أدبنا العربى

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى: د. شوقى ضيف. دار المعارف الطبعة العاشرة سنة ١٩٧٨ ص ٥١٨.

إلى ما يقرب من سبعة عشر قرنا منذ «مهلهل». ومن ثم فإن هذا الامتداد قد فرض تقسيمًا نابعًا من المتغير التاريخى لا من المتغير الفنى.. وربما تبدو هذه - بالكيفية تلك - مزية.

- أن «الرؤية الشمولية» قد ساعدت على تبين مراحل تطور الأدب العربى وتمثل سمات كل مرحلة بوضوح.. فيما يمكن أن يعد تقسمة جديدة لعصوره الأدبية من جاهلية حتى العصر الحديث مرورًا بالعصر الإسلامى، والعباسى، وعصر الدول، والإمارات.. وهى تقسمة فنية رغم ظاهرية ارتباطها بالمتغير التاريخى.

د. حلمى بدير
أستاذ الأدب الحديث المساعد
كلية الآداب - جامعة المنصورة